الجامعة

الجزء ٨ السنة السادسة

مجلة اجتماعية علمية تهذيبية تاريخية

تصدر في نيو يورك

ولنشر للشرق مدنية الغرب وللغرب مدنية الشرق

نيويورك — ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٨ — شعبان سنة ١٣٢٦

خطبة وقصيدة

لصاحب الجامعة في أثناء رحلته

الخطبة لدى شلالٍ * والقصيدة على جبلٍ

الخطبة كتبها امام شلال نياغرا المشهور المرسوم في الصفحة التي تقابل هذه الصفحة والقصيدة ابتدأ في نظمها على جبل مونت توم في هولبوك «ماس» وأتمّها على خرير شلالات نياغرا

١

الخطبة لدى شلاّل نياغرا

„ سلامٌ ايها الشلاّل . حدثني لاحدثك فقد جئتك من مكان بعيد

„ لقد جئتك من البلاد الشرقية البعيدة التي سمعتْ بك وانت لم تسمع بها .

ولقد قرأتُ عنك فيها في صباي ما ادهشني فلما وطئت قدماي بلادك العظيمة هذه كانت زيارتك احدى اماني نفسي . ولما بلغتُ مساء أمس بلدتك المسماة باسمك وسمعتُ في الفندق صوتك يملأُ الفضاء لم استطع الرقاد مع ان الليل كان في منتصفه . وكان صوتك مع كونه شبيهاً بصوت أمٍّ يهمم في اذني طفلها لتنيمه يهيج اعصابي في فراشي ويمنعها من السبات بدل ان يسكنها . وخيّل لي مرارًا انه يدعوني اليك وان لا أؤجل زيارتك ومصافحتك الى الغد . فنهضتُ الى ملابسي فلبستها وانحدرت في ظلام الليل الى الحديقة التي على شاطئك بين حبال الأنوار الكهربائية التي زيّنوا بها الطريق اليك زينةً تتجدّد كل يوم بجمال وسلامة ذوق كأنهم يحتفلون بك احتفالاً ابديًا . ولما صرت على شاطئك في الحديقة بين اصوات قبلات العشاق في الخمائل ولفتات بنات اميركا لير ين هل يرى احد تلك القبلات المسروقة من وجناتهنّ هبطتُ الى مائك بسرور ولذة لا مزيد عليهما كأنني هابط الى ماءٍ أعظم من ماء الاردن وغمست فيك كفي اصافحك قائلاً : سلامٌ يا صاحب الماء

,, اي نعم سلامٌ وألف سلام . لقد جئتُ اسألك سرّك العظيم . انا تعبتُ ولم اتجاوز ثلث قرن وانت لم تتعب وقد تجاوزتَ مئات قرون . فما السرّ في ذلك ايها الشلال ؟

,, ولم يكن تعبي من الحياة وحياتك . فقد كنتُ تعباً منها من قبل حين كنتُ في زمن الشباب . اعني شباب الروح لا شباب الإهاب . اما الآن وقد بدأتُ افهمها (عفوًا ولا تبتسم ان كنتَ تستطيع الابتسام) فقد اصبحتُ احبها كحب الانسان لشيءٍ لا مفرّ له منه فان حضر تمتّع به وان غاب لم يسأل عنه .... — وانما تعبتُ لانني اركض ورائشيءٍ وهو يركض امامي

,, فلعلّ هذا سبب تعبي بعد ثلث قرن وعدم تعبك انت مع انك ابن

مئات قرون

„ انت لا تركض وراء شيء ولا تطمع في شيء . مياهك تجري من حيث لا تدري الى حيث لا تدري مندفعةً بقوة الصواعق واصوات الرعود وهي لا تبالي بمصيرها ولا بما يصيبها أو تصيبه في طريقها . فلا غرضَ لك ولا غاية . واما انا فمع ان لا غرض لي ولا غاية اريد بالرغم من الطبيعة امتنا جميعاً ايجاد غرض لي وغاية .. وهذا هو التعب العظيم . فهل انا طالبٌ مستحيل ؟ أم غايتي لا تُدرك الا بعد عناء طويل ؟

„ صعدتُ الجبال اطلبها . وهبطت الاودية اخطبها . واستوقفتُ في الاحراش نسيم المساء اسأله عنها . وناجيتُ أجرام السماء وسكان المدن والقرى استخبرهم خبرها . فوجدتهم جميعاً لا يعلمون . والآلهة الذين يعلمون ذهبوا فلا يعودون

„ انتَ عاصرتَهم منذ الوف من السنين . فاخبرني هل أسرّوا اليك خبرًا . وهل تعلم شيئاً مما سيجري ومما جرى

„ لما كان كهنة المصريين يحيطون هياكلهم بالاسرار و يسجدون فيها للأبقار . وموسى يقود شعبه في التيه . واسكندر يفتح المشرق والمغرب . ويسوع يحمل على مبادئ الكهنة المادية حملته المشهورة التي كوتهم في جباههم بنارٍ ابدية . ومحمد يدعو الى السيف أو القرآن . وبوذه وكونفوشيوش وبرهما يجتذبون اليهم أكثر من ثلثي بني الانسان . ونابوليون يقتحم اوروبا التي اتحدت عليه ليدوسها بسنابك خيله . والعلم والفلسفة بين كونت وقنث وسبينوزا وشوبنهور وهجل وسبنسر ونيتش وروسو وديكارت وفولتير وباكون . وداروين — يضطربان . ورنان يبتسم لاقوال الجميع ابتسامته اليسوعيّة المشهورة ويقول بلغته البديعة „ لكل مسألةٍ وجهان “ — لما كان كل ذلك ايها الشلال كنتَ تجرى كما تجري الآن ومعاصرًا لهؤلاء الاعاظم من بني الانسان . فقل لي هل بلغك ان أحدهم

وجد تلك الغاية المنشودة واليتيمة المفقودة ؟ وهل أسرَّ أحد منهم اليك شيئاً من تلك الأسرار الهائلة التي لا يبوح بها الانسان لاحد غير نفسه ؟ حدّثني لاحدثك يا جدّ الارض وشيخها الأعظم . وقلْ لي ما علمتَ لاقول لك ما أعلم

,, ولكن مهلاً ولا تصغِ اليَّ فليس ما أعلم بذي شأن وتكلم انت اولاً فللجبابرة حق التقدّم على الاقزام . اف ما احقر الانسان واصغره لديك وما اقبحه لدى جمالك . لقد جلستُ بجانبك ساعة انظر الى نفسي والى مياهك الفضية فهممتُ ان ألقي بنفسي فيك لأكون جزءًا منك . لاصقاً بك الى الابد لا انفصل عنك . ولكن انّى لي ذلك . — تكلم أولاً يا شيخنا الناطق الصامت . فما لديَّ شيءٌ تافه ساقط

,, وماذا عسى ان يقول لك ابن ثلث قرن يا ابن مئات قرون ؟ وماذا تستفيد من مُعاصر الصغار يا مُعاصرَ الكبار ؟ اسمع ايها الشيخ . أتعطيني كل ما في صخورك من الجماد الذي لا يحسّ وتصوغ لي منها أجمد نفس ؟ اذا تمكّنتَ من ذلك قلتُ لك قولاً هائلاً يستحقّ ان يُصغى اليه . . والاّ فلا تسلني الا ما أقدر عليه .

,, ليس هذا بجبنٍ ايها الشيخ الشجاع ولكنه كراهة للألم وخوف من الانفصال عن العالم . انك انت تقدر ان تعيش في فراشك الرحب الجميل وحيداً فريداً كالهٍ جليل . وما فتئت الآلهة تعيش وحدها . ولكنّ بني الانسان اجتماعيون طبعاً وتطبّعاً . ثم هل انت تقدر على الخروج من مجراك وارتقاء الآكام التي حولك ؟ فكيف يقدر رجل مثلي على الخروج عن طريقه المألوفة لصعود جبل أصعب وأشد خطراً من آكامك

,, أتذكر ايها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعاً لاولئك الهنود المساكين قبل

ان يصل اليك البيض ويغتصبوا ارضهم هذه ظلماً وعدواناً . لا ريب في انك تذكره لانك كنتَ فيه معبودهم . فاولئك البشر السذج المساكين الذين كانوا يصطادون التمساح من مياهك وهم عراة الابدان تكسو الرياش رؤوسهم وتحمل ايديهم الفؤوس والحراب ويعيشون بالغزو والسطو في قفر يباب كانوا أسعد حالاً وأنعم بالاً من هؤلاء البيض الوافدين على شاطئيك من جميع أقطار الدنيا وقد ملأوها بالمدن العامرة والمنازل الفاخرة والحدائق الزاهرة والمركبات الكهربائية والسفن البخارية وراحوا يتبخترون بينها تبختر الطاووس بثياب جميلة وشعور صقيلة . وصدّقني ايها الشيخ ان اولئك كانوا أسلم طبعاً وأبعد عن الخبث من هؤلاء

,, قد غيّروا ارضك ومَن عليها ايها الشيخ . وهم يظنون انهم حسّنوها وحسّنوك وجمّلوها وجمّلوك . وما جمالهم الا كجمال المرأة الدميمة : زخرف خارجي وطلاء سطحي . حكّ هذا الطلاء قليلاً فتجد تحته جيفة منتنة . اظنني غير مخطئ ولا مسيء اليك ايها الشيخ اذا قلتُ لك انك كنتَ أجمل منك اليوم حين كان شاطئك ملجئاً للمتوحشين ومعتركاً للأسود والنمورة ومسبحاً للذئاب والتماسيح ومرقصاً للدببة والقردة . فقد كان يومئذ جمالك وحشياً طبيعياً يقشعرّ له جلد التصوّر ويرتدّ عنه طرف الخيال مذعوراً . لقد كان يومئذ جمالك جمالاً حقيقياً . اما اليوم فقد أسروك كما تؤسر الاسود في الاقفاص وتُجعل (فرجةً) للناس . فأصبح شاطئك مرتعاً لذئاب ونمورة ودببة وقردة من جنس جديد لها طباع تلك ولكنها تمشي على قائمتين لا على أربع . ان روحاً مادية هائلة هبّت على العالمين فضعضعت المبادئ وزعزعت الشرائع وسحقت الاديان والآداب وساقت الناس بعصا الحاجة الحديدية الى مبادئ هائلة جعلتهم ذئاباً هائلة . فان الامم الآن تتعادى وتتسلح تأهباً لاقتتال أفظع من اقتتال

الذئاب . والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها وقويها ضعيفها كما تفعل اسماكك . فركفلر يملك من المال الف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدون . وهو يستخدمهم باجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم وهم يسكتون و يعملون لانهم مضطرون . والسلطة في الارض ضعفت وكادت تنحل . فان الناس اسقطوا العروش والملوك ولكنهم اقاموا مكانها ملوكاً لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس (١) فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين الذين يتملّقون الشعوب ويضلّونهم كما كان أخصّاء الملوك يتملّقونهم ويضلّونهم . والافراد يتخاصمون و يتعادون و يفترسون بعضهم بعضاً بايديهم وألسنتهم وأقلامهم تنازعاً على (الرزق والسيادة) وقُبح هذا الرزق وهذه السيادة اذا كان لا يبلغ اليهما الا بالرجوع الى وحشية وهمجيّة أشد من الوحشية والهمجية الاولى . فاذا كان كل هذا هكذا ايها الشلال فأين الارتقاء الذي يزعمونه ؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك ؟ وما هذا القبح الذي يدعونه جمالاً ؟ من أجل هذا صرخ حكيم مشهور (٢) قائلاً ,, يا وحوش البرّ وافاعي الغابات خذيني اليكِ آكل من طعامك وأشرب من مائك فان صحبتك أهون على الانسان من صحبة الانسان ''

,, كل متحمس لمبدأ أو فكر أو فضيلة أو فضل يُعدّ الآن بين تلك الذئاب الجديدة ساذجاً مخدوعاً لاننا اصبحنا ولا فضل غير الفضة ولا مذهب غير الذهب ولا كمال غير الريال . ويا للأمر المدهش . فان المتحمسين القادرين المخلصين للمبدإ والفكر يُضطرون الى كتمان حماستهم وفكرهم وإخلاصهم لئلا يُرمَوا بتلك التهمة وطلاّب المنفعة المادية الجهلاء العاجزون المراؤون ينادون على السطوح بالمبدإ

(١) سلطة الشعب (٢) لابرو يبر في كتابه « الاخلاق »

والفكر والاخلاص و يمدّونها كشركٍ للاقتناص . البوم يُصرخ ايها الشيخ والبلبل يسكت . والناس لا يفرقون بين صوت البلبل وصوت البوم . . . بل مبادئ الناس الواطئة اكثر موافقةً لصوت البوم منها لصوت البلبل . الناس لاهون بمعدهم وخزائنهم وانانيتهم فلا تحدّثهم عن شيءٍ آخر . لا تذكر لهم الحياة العالية العقلية والادبية . ولا تستنزل لهم من الملأ الأعلى همس الآلهة والملائكة . ولا تترجم لهم اصوات الطبيعة وعواطف النفس الجميلة . فان كل هذه لا تهمهم ولا تحرك اوتار قلوبهم لانها اصبحت لا تتحرك الاّ عن طريق (المعدة والخزانة والانانية) . ان الشراهة والجهالة والكبرياء قد اتحدت عليهم وطوّقت نفوسهم باسلاك من فولاذ لتربطها بتراب الارض منعاً لها من الارتفاع الى الآفاق العليا التي تعيش فيها النفوس العليا . فاخبرني ايها الشيخ الخبير مَن مِن الفريقين هم الضالّون المخدوعون ؟ ومَن يكون المنتصرون الفائزون ؟ افدني لاستفيد وافيد . وأُمزق ذلك القناع بيد من حديد

,, انني ايها الشيخ من امة صغيرة هجر كثيرون منها بلادهم الى بلادك طلباً للرزق والارتقاء . وقد بدأ كثير من تلك المبادئ الهائلة يتسرب اليهم في بلادهم قبل هجرتهم الى بلادك وزاد تسربها اليهم بعد هجرتهم زيادة هائلة . فقد كانوا يعيشون منذ ٥٠ سنة مع سائر الامم الشرقية بسذاجة ودعة وتضامن وطمأنينة واحترام للنظام الاجتماعي بين الناس كما يعيش الطفل في سرير امه . ولما دخلت اليهم مبادئ قومك وبلادك تغيرت حالهم ونفوسهم كما تغيرت احوال جميع الامم الشرقية ونفوسها بعد دخول مبادئ قومك اليها . فافدني ايها الشيخ ما سألتك اياه لابلغه اليهم فنعلم جميعاً هل نحن على هدىً أم ضلال وما هو الغث والسمين في تلك المبادئ . وثق انني لا اخشى في هذا البلاغ لومة لائم وان كان مما تضطرب له الشيوخ في القبور والاطفال في التمائم . ولا

تخشَ التثقيل عليَّ ايها الشيخ فان حرفتي البلاغ ووظيفتي النشر . ومن سوءِ طالعي انني اتخذتُ هذه الحرفة سبيلاً لي في الحياة في بلادنا ولغتنا

,, عفواً ايها الشيخ ولا تلمني لقولي (من سوءِ الطالع) فانني ما اردتُ ما ما ظننتُ . ان طيور السماءِ تكتفي بقطرة ندىً وحبة قمح ونحن طيور الخيال نكتفي بما تكتفي به طيور السماءِ . وهذه الطيور تعيش بسلامة جسماً وروحاً في اصغر بقعة جدباءَ كما تعيش في الرياض الفيحاءِ وتغرد بانغام سماوية في تلك كما تغرّد في هذه . فما اردتُ بكلامي الكسب المادي ايها الشيخ وأنما أردتُ الكسب الادبي . ان صناعتنا شقيّة في بلادنا ولغتنا . ومن (ظلمها لِذاتها) حُرم لَذّاتها وجميع اللذات . فهو يضطر في سبيلها الى مسالمة الفساد . والإغضاءِ عن أهل الاوهام والخرافات والاستعباد . ومعاداة الاصدقاءِ ومصادقة الاعداءِ . والخلط بين الكرام والغوغاءِ . وتسمية الانحطاط ارتقاءً . ورؤية الجهل سائداً والسكوتُ عنه . والحق ضائعاً والابتعاد منه . واذا جاشت في النفس تلك النار التي توقدها الآلهة في بعض النفوس واضرمت الغضب المقدس في الصدور والرؤوس وحركت اليد لاستنزال صواعق الفكر على الطروس — سكّن العقل الجاف البارد تلك الصواعق قبل وقوعها بالابتسام وعدم المبالاة . وقال للنفس الغضبى (اياكِ والسذاجة والغرور) وأنشدها ذلك القول المشهور : ,, مكانك تحمدي او تستريحي ،، فتصبح النفس وفيها ما في مياهك . بعضها في المرتفع ثائر هائل كثورة شلالاتك غالٍ غليان امواجك يطلب السدود والحواجز والعقبات لكنسها بقوته كنساً فلا تجترئ الجبابرة ولا الآلهة على الدنو منه . و بعضها في السفح على الشاطئ هادئٌ ساكن كأنه ماءٌ في بركة تلعب بجانبه الاطفال وهو بها غير مُبال . و بين ذاك الهياج وهذا السكون قوة الآلهة ايها الشيخ وآلام المنون

,,انت قوي وتستطيع الثبات على هذا السكون والهياج معاً . وانما مزيتك العظمى وقوتك الكبرى ثباتك هذا . فثبتنا في ثباتِ كثباتك . انك ايها الشيخ لو انقطعتَ عن الجريان منذ عامٍ أو مئةٍ او الف لكان نياغرا الآن في خبر كان ولضحك منك الامازون والمسيسيبي بل النيل والدجلة ضحكاً ملأ السهول والوديان . فيا لهذا الثبات العجيب مدة الوف من السنين . كل شيء في الحياة حولنا نحن معاشر البشر يتغيّر ويتغيّر . اصدقاؤنا يخونون . واحبابنا يسلون . واجدادنا وآباؤنا وابناؤنا يذهبون . واعداؤنا يعادوننا بسبب وبلا سبب ولا يعودون . وامم تنقرض وامم تقوم . والاسافل يستعلون . والاعالي يسفلون . والسلاطين على العروش يرتعدون . وكل شيء في الارض يتزعزع ويتضعضع حيناً بعد حين حتى المبادئ التي خلناها ازلية ابدية بل حتى الارض التي نمشي عليها يوم تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها . نعم كل شيء يتغير الاك . فبارك الله في عظمة ثباتك وحيّاك وبيّاك

,, يا روح نياغرا والاهة مياهه : بعيني قد ابصرتك . وبعد هذا اليوم اصبحت اعتقد ان لكِ نفساً كنفسي . ولستُ اعني بهذا مسألة الخلود فانتِ خالدة كما دلّ على ذلك تاريخك . وقد استدللتُ عليكِ حين صافحتُ ماءكِ بغمس يدي فيه وتجلّى لي بين رشاشه المتطاير كالغبار امامي قوس قزح بديع . يا لذة الحياة العقلية الكبرى حين رأيت قوس قزحك هذا كأن نفسك تنتصب ضمنه للترحيب برجل جاءك تعباً ملولاً متألم الضمير ولا يعزيه في الدنيا لذة او جمال غير جمالك وجمال امثالك . انني بعد ان رأيتُ هذا القوس وسمعتُ على الاثر هديرك الهائل كأنه طبول بعيدة تُضرب ووقع في اذني تغريد العصافير في أشجارك ورأيتُ الازهار تتمايل على شاطئيك وحولها الفراش يطير ويقع وماؤك بينها كلها مسرع تحت الجسر الى حيث لا أعلم ولا هو يعلم — خُيّل لي برهةً لغروري

ودهشتي ان روحك حيّة حاضرة في هذا الاحتفال الطبيعي العظيم وقد اقامته استقبالاً لي وردًّا لتحيتي واستعداداً لاجابة طلبتي . ولكنني لما رأيتُ في اشجارك السنجاب يصيح وهو ساكن على الغصن ينظر اليّ وصوته شبيه بصوت الضاحك ضحكًا مستمرًا . والغراب على الشجر البعيد ينعب نعيباً شبيهاً بانين الثكلى وبكاء الباكي جهراً . وقفتُ حائراً امامك استنطقهما واستنطقك إذ خُيّل لي ان ذلك الضحك والبكاء انما هما ضحكٌ من حجّي اليك اطلب سراً وغاية حيث لا سرّ ولا غاية وبكاءٌ على آمال الصبى الذهبية والاماني السماوية التي خلتها ابدية واذا بها كالسراب جميل في العين ولكن لا أثر له ولا عَيْن . وبين الأمل في روحك المتجلية في قوس قزحك واليأس لضحك سنجابك وبكاء غرابك اطرقت على الجسر امامك ولبثتُ صامتاً ولم يبقَ حينئذ في نفسي لذة ولا ألم . ولا يأس ولا أمل . اذ هي كادت تصبح جماداً كجمادك

,, اي نعم ايها الشيخ الذي ما عضّه ناب الهرم وان كان قد طال عليه القدم ستبقى على مرور الزمان (حجاً) لبني الانسان كما كنتَ حتى الآن . فسيأتيك جمهورهم من بعدي كما جاؤوا قبلي ما دامت الارض أرضاً والسماء سماءً . ومنهم العاشق عشقاً شرعياً يتساقى هو وعروسه في شهر العسل في الفنادق المشرفة عليك كؤوس سعادة وقتية . ومنهم العاشق السارق يجعل ظلال اشجارك على شاطئيك في ظلام الليل مخبئاً لسرقاته . ومنهم سياحٌ لا صناعة لهم غير السياحة بل لا صناعة لهم ولا عمل أصلاً لانهم من أهل الترف والكسل والبطالة يقصدونك لقتل أوقاتهم لان غيرهم يتعب ويعمل لهم ولا يفهمون منك غير جريان مياهك . ومنهم جمهور متوسطي العقول الذين سمعوا بانك جميل عظيم فاختلسوا فرصة من اوقاتهم وساروا اليك مع السائرين والتهوا

بالملاهي الصبيانية التافهة عن جلالك وجمالك . ومنهم الحزين أو المنكوب أو التعيب من الحياة أو جريح القلب جرحاً ابدياً بكارثة من كوارث الدهر الغادر والزمان القاهر يجيء اليك وهو يجرّ ذيول آلامه التماساً للقوة في ظلالك وطلباً لتبريد نفسه المتقدة بشيء من رشاش مائك . ومنهم (وهم المتأخرون المقدّمون) جمهور أهل الفكر يزورونك كزيارة الكاهن الهيكل ويقفون عندك يستنطقون آثارك ويستجلون أسرارك ويسألونك أخبارك ويذكرون ويتذكّرون . وانتَ يا أيها الشيخ الجائر تردّ (هؤلاء) الى بلادهم جامدين صامتين منقبضين لانك لا تفتح لهم خبايا أسرارك واما جميع (اولئك) فتردّهم فرحين نشيطين معجبين . فلا تحالف الزمان على خياره وخيارك

,,لقد طفتُ في ربوعك وحادثتك وسألتك فلم تجب وها انا عائد عنك . فوداعاً ايها الشيخ . تذكّر في المستقبل رجلاً جاءك من أقصى الشرق وأجال في ضفتيك مزيجاً غريباً من روح الشرق والغرب ممزوجاً في نفسه وأفكاراً قد تستأهل الاهمال وعدم المبالاة ولكنها لا تستأهل الضحك والهزء . واذا هزأتَ بها فاهزأ فقد هزأتَ قبلها بالدهر وضحكتَ من الزمان . ولكن قبل ان تهزأ تذكّر انها نتيجة تأثير قومك وأجداد قومك . فنحن تلامذتكم في الصغائر كما نحن تلامذتكم في الكبائر . صدقني ايها الشيخ . غيّر مجراك واذهب الى بلادي . فهناك تجري خاملاً مجهولاً لا يعكّر مائك ذئاب قديمة او ذئاب جديدة . ولا يستأسرك الناس ليجعلوك (فرجة) والعوبة بل تعيش على هواك معيشة الخمول والسلامة بعيداً عن الناس . هناك تسمع حفيف أشجار الارز وتهبّ عليك ريح الاهرام وينبت زنبق البرّ على شاطئيك . واذا مرّ بك اتفاقاً بعض الناس مروا باحتشام . ولا تسلني ايها الشيخُ لماذا اتيتُ منها الى بلادك اذا كان هذا حال بلادي فللتقادير أحكام"

٢

القصيدة على الجبل

﴿ الشعر على الطريقة العلمية ﴾

بين نيتش وتولستوي
في وسط امجاد الولايات المتحدة

عُجْ بالجبال ولا تعجْ بالوادي ... ان شئتَ رؤية هذه الامجادِ
واركب لها قطُرَ البخار فقد مضي ... عصر النياق وصوت ذاك الحادي
العيس بادت والطلول عفت وما ... يُلفى لها من نادبٍ أو هاد
واطلب اليها (١) ان تطير ولا تقل ... مهلاً فانك سائر (بفؤادي) (٢)
الوقتُ مالٌ والزمان زمان ركضٍ ... لا زمان تخنّثٍ ورقادِ
وتلاعب في (الرقتين) و(حوملٍ) ... (والسقط) أو في الندب والتعدادِ (٣)
الوقت وقتُ إرادةٍ صماءَ تصرع ... كل معترضٍ سبيل جهادِ
هذا كلام نيتش ان نيتش كان ... مقوّم المعوجّ والمنئادِ
في زعم بعض الناس اما مذهبي ... فيه فأبقيه الى ميعادِ

*****

ولقد صعدتُ الى الجبال أرى الورى ... واقيس حالهمُ بحال بلادي
فبدت ليَ (الارض الجديدة) (٤) مثلما ... تبدو المدينةُ من ذرى المنطادِ
وتمثّلت لي بين اتلانتيكها ... ذاك العجاج وبين ذاك الهادي" (٥)

---

(١) الى قطر البخار (٢) هو من شطر مشهور للفارض يستعمل فيه الابل والحادي لانها سائرة بحبيبه (٣) الرقتان وحومل والسقط اماكن في بلاد العرب مشهورة في اشعارهم (٤) الارض الجديدة اميركا و بالاخص الولايات المتحدة (٥) الهادي هو الاوقيانوس الباسفيكي وترجمته بالعربية الهادي

كعوالمٍ من غير دنيانا بدتْ تزري ببابل أو بذات عمادِ (١)
شعبٌ عظيمٌ هائلٌ متفرّقٌ في واسع الاغوار والانجادِ
مدنٌ كما انتثرت نجوم القبة الزرقاءُ أو كالرمل في التعدادِ
والله لا ادري أأسهل ان أعدّ بلاد هذا الشعب عدّ سدادِ
أم ان اعدّ شعوبه (٢) — وكلاهما صعبٌ وفيه حيرة المرتادِ
في الشرق بيروتٌ وقاهرة ولكن كم هنا تلقى (٣) من الأندادِ
في الشرق لبنانٌ وحيدٌ انما كم ههنا من شامخ الاطوادِ
في الشرق أرض قُدّستْ بنبوّةٍ ظهرت بها قدماً وغاب الهادي
وهنا أراضٍ قُدستْ بالاهة الـ حرية القصوى وهديٌ بادِ
هذي شرائعنا الجديدة فانظروا آثارها يا معشر الزهادِ
شرع جديد (٤) لستُ أزعم انه أبهى وأجمل من شرائع عاد (٥)
لكنني لا استطيع اذا رأيتُ جميله في البر والاسعادِ
ونظامَ عيش الناس فوق سهولة الـ كسب الجزيل وأمن كل مُعادِ
ووداد اقوام يؤالف بعضهم بعضاً بلا ضغنٍ ولا أحقادِ
أن أُنكر الشمس الجليّة في الضحى واقول خير الشرع شرع الفادي (٦)
أوشرع ذاك المرسَل (٧) الغازي الذي ملأ الورى قسطاً وحسنَ ايادِ
أو شرع ذاك الصالح (٨) المقطوع في حرش يسائلُ ربّه وينادي
مات (القديم) فكفّنوه فما له ما بيننا من رجعةٍ ومَعادِ
الارض تحتاج (الارادة والعزيمة والنشا ط) وليس وهمَ الدين والإرشاد (٩)

---

(١) هي ارم ذات العماد المشهورة في التقاليد الاسلامية التاريخية (٢) في الولايات المتحدة اجتمعت جميع شعوب الدنيا من اكبرها الى اصغرها (٣) اي هي تلقى (٤) مقابلة بين الشرائع المدنية الجديدة والشرائع الدينية القديمة (٥) اي الشرائع الدينية القديمة كقدم ثمود وعاد (٦) المسيح (٧) محمد (٨) بوذه (٩) كل ما يلي معقودٌ من فلسفة نيتشي حرفاً ومعنى لخصناه لبسط المذهبين. وناقل الكفر ليس بكافر

فبها ارتقت هذي البلاد وانها مرقاةُ كل تمدنٍ وبلاد
هذا كلام نيتش ان نيتش كان مقوّم المعوجّ والمنئـاد
في زعم بعض الناس اما مذهبي فيـه فابقيه الى ميعاد

*****

ذا الشرع (قال نيتش) حلّ عزائم الأبنـاء والآبـاء والاجداد
رفقٌ مساواةٌ اخاءٌ رحمـةٌ حب الورى حتى العدوّ العادي
هذي شرائع ضد كل غريزةٍ حيويـةٍ ومبـادئ استعبـاد
شقيت بها الامم التي اتّبعت مبا دئها وذا أثر الشقاوة بـاد
فيها تصير الارض مستشفى رحيب اً والورى في ظلمةٍ وسواد
اذ يُصبحون وكلهم اما مريضٌ او ممرّضُ ذي ضنىً وسهاد
فكأنها كانت لجمهور الأنام كقتـالٍ يُفنيـه او جـلاّد

بينا ترى القلب السليم ملازماً تعليمهـا بسذاجـةٍ وعنـادِ
يستضعف الطبع القويّ لجعله لسمومها في غاية استعداد
متجافياً عن كل ما يؤذي الأنام وسالكاً فيهم سبيل رشاد
حتى يبيتَ (وكان من اقوى الرجال) كأنـه ولدٌ من الاولاد
تجد الغليظ النفس من قد حادَ عن تعليم ذاك الشرع كل حيادِ
مستبقياً في نفسه قواتهـا مشحوذةً لتنـازعٍ وجهـادِ
ولذاك ينعم في الحياة ويسبق الاقران في الميدان سبق جياد
قد اصبحتْ نفسي تعاف شرائعاً تُشقي وتُفني نفس كل جوادِ
وبضدها يعتز كل صغير نفسٍ أو عديم الحسّ مثل جمـاد
وبها يتاجر (ذاك) من لبس السواد كما باحقر سلعة أو زاد
يا ليتَ في نفسي قوىً كقوى الهِ كي أُبيد شرائع العُبّاد
من يعبدون وانما معبودهم اهواؤهم لا واحد الآحاد

و بذي العبادة يُهلكون قوى النف وس ويُضعفون غرائز الاجساد
هذي جهنَّمُ في الحقيقة لا التي ذُكرتْ بانجيلٍ وبالاوراد (١)

اما المساواة التي تدعونها فضلاً وخيراً فهي شرُّ فساد
كيف السواءُ أتحسبون الناس قد صُنعوا كصنع حدائد الحدّاد
في قالب صُبّوا فكان جميعهم متماثلاً كمبارد البرّاد
ان المساواة التي تبغونها ظلمٌ لكل فتىً رفيع عماد
فبها تُذلُّ قوى الاولى امتازوا ومنـ ـهم يُرتجى خيرٌ ونفعُ عباد
وبها يُساوي بين أعظم من مشى فوق التراب وأحقر الاوغاد
يا ضحكةَ العقل السليم وهزءَ أهل الفهمِ من ذا الجهلِ والإفساد

من ثم قلتم ان (حبَّ الذات) شرٌّ مستطيرٌ هادم الامجاد
مع ان هذا الحبَّ أصلُ رقيِّ كل جماعةٍ ونشاطها الإفرادي
ان قيل يوماً قد ذوى في امةٍ وكذاك في فردٍ من الافراد
ما فيهما من (اثرةٍ) فقل السلام عليهما فالويلُ بالمرصاد
هذا كلام نيتش ان نيتش كان مقوّم المعوّج والمنقاد
في زعم بعض الناس أما مذهبي فيه فابقيه الى ميعاد

****

حملَ الهواءُ اليَّ صوت نيتش هذا وارداً من صوب ذاك الوادي
من فندقٍ فيه جعلتُ حقيبتي ولسان ذا الاستاذ فيها شادِ
اذ في الحقيبة سفره المشهور ,, بابتـ ـدأ الظلام،، (٢) وكل سطر مداد
فيه يصيح كضرغمٍ مستأسرٍ يُرغي ويُزبد ايما إزباد (٣)

(١) الاوراد آيات القرآن (٢) هو كتابه « ابتدأ الظلام عند الاصنام »
(٣) كتابة نيتش مشهورة بكونها غاية في الحماسة والحدة والشدة لان موضوعها تنازع مبادئه ومبادئ من تقدموه

فطردتُ صوت نيبتش عن سمعي لأمتعَ ناظريَّ ومسمعي وفؤادي
بجمال ما حولي من الآثار من صنع الطبيعة أو صنيع أياد (١)
واذا بصوتٍ هائلٍ يدوي كما تدوي الرعود قواصفاً وينادي

ـ أنيتشُ مهلاً لي اليك رسالةٌ ضاقت بها نفسي وضاع رشادي
فذُعرتُ ثم بحثتُ اطلب صاحب الـ صوت الرهيب فلم أجد من باد
الا كتاباً كنتُ قد اودعته في جانبي في الحرش كالمعتاد
عنوان هذا السفر (بعثٌ) (٢) وهو من تأليف "تلستوي" العظيم الهادي

***

فرأيتُ في ذا السفر كل صحيفةٍ تهتزُّ من شيءٍ كجنح حمام
والريح ساكنةٌ فحرت بأمره وحسبتُني في عالم الأحلام
ما كنتُ ادري ان روح عزيزنا "تلستوي" قد حلّت به قدامي
ولذاك تضطرب الصحائف مثلما اضطرب السياج بسالف الأيام
لما بدا فيه لموسى ربُّه في شكل نارٍ غير ذات ضرام (٣)
فعلمتُ ان الصوت صوت حكيمنا "تلستوي" فارتعدت جميع عظامي

يا فرحةَ الدنيا وسعدَ فتىً رأى رأيَ العيان أكابر الاعلام
وتموّجت في نفسه اصواتهم كتموّج النسمات والانغام

افديه بايام الزمان جميعها ساعاتِ يوم كان فيه امامي
علامة الالمان والعلامة الروسيُّ في هذا الجدال السامي

---

(١) ان الشركة التي تدعو الى زيارة هذا الجبل في اعلاناتها ومطبوعاتها تقول انه ممتاز بالجمال «الطبيعي والصناعي» (٢) هو كتاب «البعث» المشهور (٣) اشارة الى ما جاء في التوراة عن ظهور الله لموسى في العليقة بشكل نار لا تحرق

لا برلمانات الورى في العُرب واليونان والرومان والاعجام
لا عصر ميرابو وذيموستين او جوريس او غمبتّ ذي الاِلهام
كلا ولا فردوس ملتن والجحيم جحيم دنتي صاحب الاَحلام
حتى ولا فوق السماء وتحتها مما دنا أو شاسعٍ مترام
يوماً دوى فيها جدالٌ هائلٌ كجدال ذا الضرغام للضرغام

مستقبل الانسان والدنيا جميعاً كان في هذا الجدالِ الحامي

ــ أنبيتش (قال الفيلسوف) قد استمع تُ غريبَ قولك فاستمع لكلامي
أتظنّ ما قد قلتهُ علماً جديداً لا وحقّ العلم والعلاّم
شيءٌ قديمٌ ما ذكرتَ لو انتبه تَ ولم تكن بالمبصر المتعامي
اذهب الى الغابات حيث الناس ما زالوا كمثل سوائم الاَنعام
فهناك تلقى الناس يتّبعون شرع نبيتش طبق اصوله بتمام
لا شرع عندهمُ سوى ما آلفوا من قوةٍ وحشيّةٍ وخصام
فقويهم يا ليت عين نيتش تنظ ر دوسه فوق اللهى والهام
بنشاط ذئبٍ فارسٍ وعزيمة الاسـ ـدِ الهصور وحدّةِ الصمصام
وضعيفهم يعنو بذلٍ للقويّ وان تمرّد ديس بالاَقدام
أمثل هذا يا نيتش تريد إرجـ اع الورى في عصرنا البسّام
مرّتْ قرونٌ والنوابغ يتعبـ ون لجذبنا من ذا البلاءُ الطامي
وتريد انت الآن هدم بنائهم مهلاً نبيّ اواخرِ الايام
تعليمك الممقوت يدفع للورا عمران هذا الارض لا لاَمام
ثمّ انبرى تُلستوي يشرح ضدّ ذا التعليم شرح معلمٍ علاّم
تعليمَ أديان الورى ومبادئ الحـ ـبّ الجميل وكل فكر سام
وعماده الانجيل والتوراة والقرآن والفيدا بعذب كلامِ

واذا أردتُ بيان كل مقاله طال القصيد كطول شهر صيام

***

لما شفى تلستوي غلّ فؤاده من خصمه والشمسُ في الآصال
سكن الكتاب لان روح حكيمنا قد فارقته للفضاء العالي
لم أدرِ هل صارت الى ما فو ق أم عادت لجسم الفيلسوف البالي
جسمٌ كأجسام الشيوخ وانما فيه جمال سذاجة الاطفال

***

ساد السكون هنيهة لكنما من بعدها هبت رياح شمال
حملت اليّ من الجبال وشاسع الآ كام والوديان والادغال
اصوات طير الجو والاحياء طرًا تستغيث بربها المتعالي
لم تستفد غير (التحيّر) منها (١) فجميعها أمسى ,,أبا مرقال'' (٢)
ونفوسها ذابت أسىً يا ليتها ظلّت كما كانت من الجهّال ...

***

ثم انحدرتُ لفندقي من قمة الجبـ ـل الرفيع لكي أشدّ رحالي
وحلفتُ اني بعد هذا اليوم لستُ بمرتقٍ جبلاً من الاجبال
فالمكثُ في ظلمات وادٍ باردٍ خيرٌ لمن يهوى فراغ البال ...
وذكرتُ حينئذ مقالة شاعرٍ ,, السيلُ حربٌ للمكان العالي'' (٣)

فرح انطون

---

(١) أي من كلام نيبتش وكلام تولستوي (٢) اشارة الى البيت المشهور

فاضاع مشيته واخطأ مشيها ولذاك سموه أبا مرقال

(٣) هو شطر بيت مشهور لعله لابي تمام او البحتري. ولما أنشده قائله وقف ممدوحه اجلالاً لهذا البيت. ولا تخفى بلاغته كما لا تخفى مناسبته لهذا المقام